مقاومة تافيلالت للاحتلال الاجنبي في مطلع القرن 20

1908-1900

● محمد بكراوي

يقول الاستاذ الجليل محمد المنوني في مقال له صدر مؤخرا مايلي: «هل آن الأوان لبعث تاريخ المقاومة المغربية خلال القرن العشرين؟»(1) هذا التساؤل له اكثر من دلالة حيث يعبر عن:

1) الاهمال الذي عم المقاومة الوطنية المغربية لفترة طويلة.

2) وهو ايضا بمثابة دعوة موجهة الى المؤرخين والباحثين المغاربة الى الالتفات الى هذا الجانب المغمور من تاريخ المغرب.

واذا كانت بعض الحركات الوطنية، وقد حظيت مؤخرا بدراسات وابحاث تاريخية جادة كما هو الشأن بالنسبة لمقاومة ماء العينين ثم الهيبة في الجنوب والبوعزاوي في الشاوية ومحمد بن الكريم الخطابي بالريف مثلا، فان حركات اخرى لم تنل حظها من اهتمام المؤرخين رغم مساهمتها الفعالة في الكفاح الوطني ضد الأطماع التوسعية الفرنسية ومن بينها مثلا منطقة تافيلالت التي قاومت المحتل الفرنسي فترة طويلة امتدت على مايزيد عن ثلاثة عقود تقريبا دفاعا عن نفسها واستمرار استقلالها وسيادة وطنها.

ويكفي ابناء تافيلالت فخرا ان منطقتهم تحتفظ بأسماء كثيرة لابطال قاوموا المستعمر طويلا امثال مولاي احمد بن لحسن السبعي والسملالي وبلقاسم النكادي وعسو باسلام.. وغيرهم كثيرون.

فمتى وكيف تم تحرك ابناء تافيلالت لصد الغزو الاجنبي؟ ومن هم ابطال هذه الحركة الجهادية؟ وماهو مغزاها الحقيقي؟

ولكي ندرك اهمية ردود الفعل ينبغي الوقوف منذ سياقها العام، وبالتالي التطرق اولا للمغرب امام التحديات الامبريالية في مطلع القرن العشرين.

I - المخطط التوسعي الفرنسي في مطلع القرن العشرين

1) التنافس الاستعماري للاستيلاء على المغرب

تعتبر المرحلة الممتدة مابين 1900 و1911 من أدق وأخطر المراحل التي عرفها تاريخ المغرب المعاصر، اذ سبقت بقليل سقوط المغرب في أحضان المستعمر، فخلال هذه المرحلة كان المغرب محط أطماع خمس دول استعمارية كل واحدة منها تسعى جاهدة الى الاستيلاء لاستغلال امكانياته الاقتصادية والستراتيجية، خاصة وأنه البلد الافريقي الوحيد - بجانب اثيوبيا - الذي ظل محتفظا باستقلاله، رغم ازدياد اشتداد الاطماع الاوربية، خصوصا منها الفرنسية التي حاولت استغلال الاوضاع الداخلية المتدهورة، وتنفيذ مخططها التوسعي انطلاقا من المناطق المغربية الشرقية.

2) محاولات فرنسا للانفراد بالمغرب

ولقد سخرت فرنسا جميع الوسائل والطاقات الاقتصادية والدبلوماسية والعسكرية للانفراد بالوضع داخل المغرب من ذلك مثلا:

1)منح الحماية القنصلية على نطاق واسع قصد نقض وتفكيك بنيات المجتمع والسلطة المركزية.

2) اثقال كاهل المغرب بغرامات وتعويضات باهضة، اثر الهزيمة التي مُني بها المغرب في معركة تطوان مثلا.

3) توطيد نفوذها المالي على المغرب عن طريق مد المخزن بالقروض التي كان في امس الحاجة اليها:

مثلا سنة 1900 كان الفائض المالي لخزينة الدولة 14 مليون فرنكا ذهبيا.

في حين بلغ العجز المالي سنة 1910: 300 مليون فرنك ذهبي

4) اثارة الاضطرابات الداخلية وتشجيع الحركات المناوئة للمخزن كحركة الجيلالي الزرهوني المدعو بوحمارة.

5) عقد اتفاقيات وصفقات مع الدول الاستعمارية المنافسة لها لتصفية الجو لتحركها العسكري.

وعلى اثر ذلك سارعت فرنسا الى الغزو العسكري السافر لاطراف البلاد.

3) مراحل التوغل العسكري الفرنسي داخل المغرب

من المعلوم ان التوغل الفرنسي داخل المناطق الصحراوية المغربية قد بدأ انطلاقا من المناطق المستعمرة المجاورة للمغرب، نهري السنغال والنيجر والاطراف الجنوبية الغربية للجزائر التي كانت تكون القاعدة الأساسية للتحرشات العسكرية الفرنسية، وهكذا احتلت فرنسا مابين 1899 و1900 الواحات المجاورة للجزائر مستغلة تقاربها مع انجلترا، فاحتلت كلا من توات وتيدكلت وكورارة وانتزعت من المخزن معاهدة 1901 التي اعترفت بالوجود الفرنسي في تلك الواحات.

وعلى الرغم من احتجاجات وتنديدات المخزن العزيزي المتكررة، استمرت القوات الاستعمارية في انتهاكاتها المستمرة والمتتالية للتراب الوطني.

- ثم احتلت بعد ذلك فكيك في يونيو 1903.

وازداد توغل القوات الفرنسية داخل التراب المغربي خصوصا بعدما عين الكولونيل ليوطي قائدا عاما لمنطقة عين الصفراء في شتنبر 1903، فوجه عدوانه لبشار التي احتلها في اكتوبر من نفس السنة، وعين بني مطهر (بركنت) خلال يونيو 1904.

وفي سنة 1907 احتلت مدينة وجدة والبيضاء وتوغلت في منطقة الشاوية وهضبة كير العليا: بوعنان، عين الشعير...

وفي نفس الوقت شرعت اسبانيا في غزو شمال البلاد بعد احتلالها لبعض مناطق الجنوب: كسيدي ايفني والساقية الحمراء مثلا.

وبهذا اصبح المغرب مطوقا من جميع الجهات.

ان هذا التدخل الاجنبي السافر قد ادى الى استياء عميق تبلور في مقاومة عنيفة تميزت بتكتل جميع شرائح المجتمع بما في ذلك المخزن والجماهير الشعبية وبعض الزوايا لصد «العدو الكافر»

كيف ظهرت المقاومة؟

II - المقاومة الوطنية بتافيلالت:

1) عوامل تأخر التوغل الاستعماري الفرنسي بهذه المنطقة؟

تقع منطقة تافيلالت في مجال متاخر للجزائر، اقرب الى ميادين التوسع الفرنسي، وكان اذن من المتوقع ان تكون اول المناطق تعرضا للاحتلال، على ان الملفت للانتباه هو تأخر احتلالها، فما هي اسباب هذا التأخر؟

* هل لانها منطقة ضعيفة الامكانيات الاقتصادية؟

* ام يعود السبب الى الظروف الدولية المتمثلة في منافسة المانيا لها؟

* ام للمقاومة الشعبية البطولية التي خاضها السكان ضد المحتل؟

بدون شك ان السبب الأخير هو العامل الأساسي لهذا التأخر، خاصة وان المستعمر بدأ يدرك الأهمية الاستراتيجية لهذه المنطقة التي تتحكم في تجارة القوافل، الا ان فقره للمعلومات الضرورية الكافية حولها، وعنف وضراوة المقاومة دفعت به الى اللجوء الى طرق وأساليب اخرى تسهل عليه المأمورية: منها على سبيل المثال تجنيد الضابط اوستري الذي اصبح حاكما لتافيلالت فيما بعد كجاسوس حيث تعلم اللغة العربية والقرآن في مدرسة أسرغين أحد قصور تافيلالت، وتولى بعد ذلك الامامة في بعض المساجد، وبذلك كسب ثقة السكان الذين اصبح يعرف عنهم كما يقول المختار السوسي في الجزء 16 من «المعسول» «كل شئ، واصبحت لاتخفى عنه خافية».

ولم يكتف المستعمر بهذا فقط، بل عمد الى استغلال القواد الكبار امثال الكلاوي، وتجنيد بعض شيوخ الزوايا المتواجدة بالمنطقة واثارة الصراعات وبث التفرقة بين القبائل وضرب الحصار الاقتصادي عليها قصد اضعاف المقاومة. وبذلك شرع المستعمر في غزو المنطقة.

2) تجليات ومراحل المقاومة:

الواقع ان جذور المقاومة بتافيلالت ترجع الى تاريخ بعيد، ويتجلى ذلك من خلال:

1) الحركة الجهادية التي قادها او محلي خلال القرن 17 بسلجماسة ضد الغزو البرتغالي للسواحل الأطلسية المغربية.

2) وفي سنة 1863 دعا مولاي العربي المدغري احد شيوخ الزاوية الدرقاوية الى الجهاد ضد الغزو الاسباني لمدينة تطوان.

وكان من الطبيعي ان تستمر روح هذه المقاومة ضد المحتل الفرنسي، فبمجرد احتلال المستعمر للواحات المغربية (توات) نظم السكان حركاتهم ضد المواقع والمراكز العسكرية الفرنسية بزعامة احد شيوخ المنطقة.

* من هو هذا الزعيم؟

إنه الشريف والعالم مولاي احمد بن لحسن السبعي شيخ الزاوية الدرقاوية الموجودة بدويرة السبع، قرب تالسنت، اصله من ايت سغروشن له مؤلفات عديدة في التصوف والدعوة الى الجهاد والالفية يذكر احمد بن قاسم المنصور (الذي كان مستشارا لموحا اوحمو) ان مولاي احمد السبعي قد استطاع توحيد جل قبائل تافيلالت ضد الغزو الفرنسي «كايت سغروشن وآيت يزدرك وآيت مرغاد وايت خباش وايت عطة وايت يوسي بالاضافة الى قبائل الصحراء كاولاد جرير واولاد الناصر وذوي منيع...»

ولقد ساعده على ذلك الحركة الحفيظية التي اعتبرها الاستاذ العروي:

بمثابة «ردود فعل المجتمع المغربي المختلفة في مواجهة التدخل الأجنبي»، والتي اذكت حماسا وشعورا قويا عم مختلف جهات البلاد، اذ بمجرد اعتلائه للعرش عمل الخليفة السلطاني بتافيلالت مولاي رشيد على نشرها وقراءتها في المساجد وجه رسائل تحث سكان وقبائل الحدود على الجهاد ضد الغزو الفرنسي.

ولقد شهدت سنة 1908 معارك ضارية بين المقاومين المسلحين بأسلحة عتيقة «كبوشفر» و«بوحفرة» والغزاة الذين كان هدفهم الرئيسي احتلال بودنيب.

هكذا، وفي فجر يوم 16 ابريل 1908 هاجم المجاهدون، بقيادة البطل مولاي احمد السبعي، مخيم العقيد بييرون Pierron الذي كان مرابطا في المناهبا، وهي قرية تقع بين عين الشعير وتلزازا وجرت معركة عنيفة اظهر فيها المجاهدون شجاعة نادرة كانت على حد قول اوكستان بونارد A.Bernardز أحد أقطاب الاستعمار «اخطر معركة تعرضنا لها منذ بداية المسألة المغربية، وتكبدنا خلالها خسائر جسيمة تمثلت في 19 قتيل من بينهم ضابط واحد، و101 جريح من بينهم 9 ضباط»، والضابط المذكور هو الملازم كوست.

فحاول الفرنسيون الانتقام بشن هجوم مضاد على مواقع المقاومة بقيادة الجنرال فيجي Vegy بأعالي وادي كير، لكنهم اصطدموا في ناحية بني وزيان بحركة تتكون من 6000 مجاهد وذلك يوم 13 ماي من نفس السنة، ورغم تفوق الجيش الفرنسي عدة وعددا صمد المجاهدون في وجهه وأبانوا عن شجاعة ومقدرة قتالية هائلة، واستمرت المعركة من الثانية زوالا الى المساء.

وفي اليوم التالي اضطر الجنرال فيجي الى تدعيم قواته بجيوش ضخمة، واستعمال اسلحة متطورة من مدفعية ورشاشات ومتفجرات انتهت باحتلال بودنيب.

وكان لهذا الاحتلال الفرنسي صدى قويا في تافيلالت وتأثيرا بالغا في نفوس السكان.

* مساندة المناطق الأخرى للمقاومين الفلاليين:

وعلى اثر ذلك توافد عدد كبير من المتطوعين من مختلف الجهات لمؤازرة اخوانهم: من اعالي وادي كير والمغرب الشرقي وقلب الأطلس المتوسط كزايان وايت يوسي.

ودعم كذلك علي أمهاوش، شيخ الزاوية الدرقاوية بالاطلس المتوسط المقاومين اذ دعاهم الى انتظار قدومه لمساندتهم بعد أن ارسل لهم عمامته قائلا:

«عليكم ان تحرقوا عمامتي وان تحتقروني كيهودي ان خالفت وعدي».

هذا، فضلا عن القبائل الأخرى السابقة الذكر من آيت ازدك، وايت عطا، وايت شغروشن واولاد الناصر واولاد جرير...

وخلال شهر غشت 1908، تجمع المجاهدون بأوفوس، قرب وادي الرتب، يبلغ عددهم حوالي 25 الف رجل، فتقدموا نحو سهل الجرف على بعد 7 كيلومترات من بودنيب

ومما يثير الانتباه المعنوية المرتفعة للمقاومين التي تجلت في التحدي الواضح الوارد في الرسالة التي وجهها مولاي احمد السبعي للقائد الفرنسي، فيش Fish يدعوه فيها الى خوض معركة مفتوحة في سهل الجرف.

وجاء في الرسالة مايلي: ولقد اقتبستها من كتاب A.Bernard

«الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على مولانا رسول الله.

الى رئيس الحامية الفرنسية ببودنيب

السلام على من اتبع الهدى وتواضع لله ورحمته، وبحث عن الحق، اعلموا أنه منذ قدومكم الى الصحراء، قد أسأتم معاملة ضعاف المسلمين وقد اندفعتم من غزو الى غزو...

ان نفوسكم الشريرة تقودكم الى هلاك محتوم.

لقد أسأتم الى بلادنا سوءا لا حد له، وجرَّعتمونا مرارة الحنضل، ان المجاهدين المسلمين الاشداء قادمون اليكم ومستعدون لمقاومتكم. فاذا كنتم أقوياء، اخرجوا من حصونكم الى الميدان.. وحددوا وقت ومكان المواجهة» مباشرة الا ان المستعمر رفض الدخول في مواجهة ضد المجاهدين المغاربة وفضل عدم مغادرة حصونه، مما دفع بالمقاومين الى ضرب حصار شديد على تلك الحصون في بداية شتنبر 1908، وهذا الحصار استغرق مدة خمسة ايام، اضطر المستعمر على اثره الاستنجاد بقوات عسكرية ضخمة قدمت من كلوميشار تحت قيادة العقيد أليكس Alix، مجهزة بأحدث الاسلحة اغرقت في الدم والنار مراكز المقاومة بالجرف.

وعلى الرغم من ذلك لم تحمد روح المقاومة، بل استمرت وازدادت ضراوة ضد المواقع الفرنسية من كل جهة حتى 1933.

* استنتاجات عامة:

1) لم تكن هذه المعارك الا حلقة من سلسلة طويلة ستستمر الى غاية سنة 1934 برز من خلالها ابطال اخرون.

2) تكتل المغاربة لمواجهة الغزو الاجنبي منذ ان وطأت أقدامه ارض المغرب رغم ضعف الامكانيات.

3) ان الحركات المناهضة للمستعمر كانت حركات دينية ووطنية.

4) لقد تبلورت الوطنية المغربية الحديثة منذ خطواتها الاولى، بدون شك في المواجهة الشعبية العنيفة للتدخل الاجنبي.